فاتح الجوِّ المصريُّ[(١)]

يا طيرَ المثَلِ الأعلى !

لقد انْفَلَتَّ من رذيلة الخوفِ ، وتركتَها في التراب مَوْطِىءَ القَدَم ، وقلتَ لها : ويحكِ ! لقد آن للشَّبابِ المصريِّ ، فهو مُغَامِسٌ في ماءِ الصَّواعق[(٢)] ، مُتَطَوِّحٌ في اللُّجَّة الأزليَّة ؛ التي تغوصُ فيها الكواكب[(٣)] ، يطيرُ برُوح الشَّرارة ، ويَهْبِطُ برُوح الغَيث ، ويُلْجِمُ الجوَّ ، ويُسْرِجُه ، ويتعلَّم كيف يَشْوِي عدوَّه في عَيْن الشمس .

وكنتَ بطلاً مُغَامراً ، فخطوتَ في طريق الملائكة بهذه الفضيلة ، وحملَكَ الجوُّ ؛ ولو أنَّك خِفْتَ وكنت على جَنَاحَيْ جِبريل لا على طيارة ، لخافَ جبريلُ على جناحَيه من حَطْمَةِ هذا المعنى التُّرابيِّ الطَّاغيةِ ؛ الذي يَحكمُ على الأحياء بالموتِ بلا موت ؛ لأنَّه الذُّلُّ ، والخضوعُ ، والرَّذيلة .

وحملك الجوُّ إلى قبَّة السَّماء ، وهنالك نَظَر العالَمُ ، فرأى لمصر النَّاهضةِ عَلَمَها الإنسانيَّ يتنفسُ تحت الكواكب .

وحملك الجوُّ إلينا ، فلمَّا رفعنا رؤوسَنا لنراك ، رفعناها في الوقت بين شعوبِ الأرض .

* * *

وضربتَ يا جَنَاحَ مصرَ ! في الهواء ، وأعْنَانُ السَّماءِ[(٤)] مملوءةٌ بالزَّعْزَع ، والهَوجاءِ ، والعاصِف ، والسَّماءُ في فصلها المكْفَهِرِّ الذي تخلعُ فيهِ كلَّ ساعة ، وتلبسُ ، وتُمزِّق[(٥)] ، وتَطْوِي ، فزدتَ بجُرأتك في براهينِ القضيَّة المصريَّة برهانَ

---

(١) كتبت في أول طيار مصري قدم إلى مصر من أوربة على طيارته ، في شهر فبراير سنة (١٩٣٠) وهو الطيار صدقي ، وطيارته : فائزة ، وكان مقدمه يوماً مشهوداً . (ع) .

(٢) كناية عن السحاب . (ع) .

(٣) كناية عن أجواز الفضاء . (ع) .

(٤) نواحيها ، جمع عَنان ـ بالفتح ـ . (ع) .

(٥) كناية عن طبيعة الشتاء ، من الغيم ، والصحو ، وما بينهما . (ع) .

قوةِ المخاطَرة ، وأضفتَ إلى منطقها وضعاً جديداً مُفْحِماً من روح التَّضحية .

وطرتَ بين حياةٍ وموتٍ ، فجعلتَهما يستويان في اعتقادك ؛ إذ وصلتَ فكرةَ الموت بسرِّ الإيمان ، والحياةَ بسرِّ العزيمة .

وكنتَ رَجُلَ أُمَّتِك بإنكارِ ذاتِ نفسِك من أجلها .

واتَّسَعْتَ للتَّاريخ بوضعِكَ عُمرَكَ المحدودَ على الطيَّارة ، وقذفِكَ بها ، وبهِ في مَسْبَح الأجل .

وتجرَّدتَ للأبدية لتُعطِيَ بلادَك : إمَّا شهيدَ مَجْدٍ في الآخرة ، وإما شهادةَ فخرٍ في الدُّنيا .

وكنتَ على طيارتك الصَّغيرة المُتَطَارِدَةِ تحتَ الرِّيح ، وحولَكَ رُوحُ الهَرَمِ الأكبرِ القائمِ بإرادة مصرَ ، وكأنَّه مِسْمارٌ مدقوقٌ في كُرَةِ الأرض بين القُطْبِ والقطب .

* * *

وأنت يا « فائزة » ! يا هذه الصَّغيرةُ الخارجةُ من مالِ صاحبها ، وجُهدِه ، وعزيمتِه ، كما تخرجُ القوَّة من ضَعْفٍ ، أعلمتِ إذ أنتِ ترتفعين ، وتهبطين بين السُّحُب كما تتواثبُ الفَراشَةُ على النوَّار في رَوضةٍ مُزهرة .

وإذ أنتِ تَفْتُقين ، وتحُوكين في مُلاءةِ السَّحاب ، كأنَّك بمُحَرِّكِكِ الدَّوَّارِ تَنْسِجين في السَّماء بِمِغْزَل .

وإذ أنت بين صَفْقِ الرِّياح الهُوج[1] ، تحت السَّماء المُدَجَّجةِ[2] ، في كبَّةِ الشتاء[3] ، كأنَّكِ مناظَرةٌ تجري بين العزيمةِ في الإنسان ، والعزيمةِ في الطبيعة .

وإذ أنتِ بين ذئاب الأعاصيرِ ، ونُمورِ السَّحابِ[4] ، وسباعِ الغيم ذواتِ اللِّبْدة الكثيفة المُتَشَعِّثَةِ ، كأنَّك بصوتكِ ، وأزيزِكِ تُطلقين على وحوش الجوِّ مِدفعاً رشَّاشاً

---

(١) اضطراب الرياح المتقلبة . (ع) .
(٢) المتغيمة . (ع) .
(٣) « كبة الشتاء » : شدَّته ، ودفعته . (ع) .
(٤) يُقال : ريح متذئبة ؛ إذا كانت تجيء من هنا مرة ، ومن هنا مرة ، كما يساور الذئب ، فوضعنا من هنا كلمة : ذئاب الرياح . والنمر من السحاب : قطع صغار متدانٍ بعضها من بعض ، تشبيهاً بجلد النمر ، فوضعنا منها نمور السحاب . (ع) .

يتركها صَرْعَى .

وإذ تراكِ الرِّيحُ ، فتقول عنكِ : ريحٌ صنعها الإنسان . ويراكِ النَّجم ، فيقول : نجمٌ أفلتَ من النِّظام الأرضي . وتراكِ الملائكة ، فتقول ، ويحكَ يا بنَ آدمَ ! كأنَّك بما خَلَقَهُ العقلُ تطمعُ منا في سَجْدَةٍ أخرى ، كالتي سجدناها لآدمَ يومَ خلقهُ الله .

. . . أعلمتِ ؛ إذ أنتِ كذلك يا « فائزة » ! أنَّ التَّاريخَ المصريَّ سيحوِّلكِ من طيارةٍ إلى آيةٍ كآيةِ بَدْءِ الخَلْق ؛ لأنَّ فيكِ بَدْءَ الطَّيران في مصر ؟

* * *

سلاماً يا فاتحَ الجو المصري ! لقد أجالت الأيَّامُ قِداحَها ، فخرجتْ القُرعةُ عليك ، وأوحَى إليك الواجبُ آيةَ : باسم الله مَصْعَدُها ، ومَجراها .

وطرتَ ؛ فإذا أنت بها عابرٌ فوق الحاضر لتجيئَنا من جانب المستقبل .

وهبطتَ علينا ، كأنَّك في بَريد السَّماء كتابُ مَجْدٍ حَيٍّ للوطنيَّة الظَّافرة .

بل كتابُ قصَّةٍ رائعةٍ ألَّفتْها العواصف من فنَّين : ثورةِ الجوِّ ، وثورةِ نفسك المصريَّة . وحَكَتْها في صوتين : زَفيفِ الطَّيارة ، وصَرْخةِ ضميرك الوطنيِّ . وجعلتْها فصلين : أنت ، والمجهول . ألا حسبُك مجداً أن يحيا الشَّعبُ كلُّه بضعةَ أيام في قصَّتك !

* * *

فعلى مَهْدِ الجوِّ ، وفي حَرير الشُّعاع ، وتحت كِلَّةِ[1] السَّحاب ؛ وُلِدَ لمصر يومٌ تاريخيٌّ .

وخرجت التَّهانئُ ؛ الَّتي طال احتباسُها في القلوب المصرية لا يُفْرَجُ عنها ؛ لأنَّ سجَّانَها ظُلْمُ السِّياسة .

واتَّجهتْ أفراحُ شعبٍ كاملٍ إلى الفتى الجريء ، الَّذي رَمَتْ به همَّتُه فوق هاويةِ الموتِ ، فتخطَّاها .

وتلقَّى شعورُ الأمَّة رسولَهُ المِقدامَ ؛ الذي لم يكن له ملجأ في خِطَارِه إلا شعورَه

---

(١) « كلة » : هي السِّتْر الرقيق .

بهذه الأُمَّة .

وارتجَّ الوادي كلُّه كأنَّهُ غمدٌ يتقلقلُ حين يُسَلُّ منه السَّيف .

ثُمَّ أُهْدِيتْ كلمةُ مصرَ لابنها ؛ الذي كَتبَ في جوها الكلمةَ السَّماويةَ الأولى ، وكانت ساعةٌ تلاشَى عندها الزَّمنُ ، فارتفعت منه أربعة آلاف سنة ، وهتَف معنا الفراعنة : بوركتَ يا « صدقي » !

* * *

لله درُّك أيُّما ابنِ عزيمة ! كأنَّما كَشفتَ أهاويلَ الوَحْي ، وهبطتَ في سحابةٍ مُجَلْجِلَةٍ ، إن لم تحملْ كتاباً مُنْزَلاً ؛ فكأنَّما حملتْ شخصاً مُنزَلاً .

ولعلَّك رسولُ الغَيم العابسِ لهذا الجوِّ المصريِّ ؛ الذي يضحكُ دائماً ضحكةَ الفيلسوف السَّاخر في حين أصبحت الحياةُ قوةً ، لا فلسفةً . . .

ولعلَّك مبعوثُ البرقِ والرَّعدِ لهذا السُّكونِ النَّائم الذي يطوي كلَّ يومٍ في طيِّ النِّسيان ما حَدَثَ في اليوم الذي قبله . . .

ولعلَّك نبيُّ الجدِّيَّة ، والمرارة لهذه الحلاوة النيليَّةِ المُفْرِطة ؛ التي كاد منها الشَّعبُ أن يكون سُكَّرَ أخلاقٍ ، يُذابُ ، ويُشْرب . . .

ولعلَّك تفسيرٌ مصحِّحٌ لعقيدتنا المغلوطة في القضاء والقدر : أنَّ القضاء أنْ تُقْدِمَ بلا خوفٍ ، وأنَّ القدر أن تَثِقَ بلا مبالاة .

أما واللهِ ! لقد غَمرتَ الشَّعب بموجة هواءٍ جديدةٍ ، جئت بها في جناحَيك ، ونفختَ روحَ طيَّارتك المجيدةِ في القلوب ، فجعلتها كلَّها ترفرِفُ كأنَّ لك في ضلوع كلِّ مصريٍّ طيَّارة .

* * *